الفصل الأوّل

"عن إعجاز القرآن الكريم"

obeikandl.com

obeikandl.com

*"قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ" الإسراء "٨٨"

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" هود "١٣"

"وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " البقرة"٢٣"

*يُعرّف السّيوطيّ في "الإتقان" المعجزةَ؛ فيقول: اعلم أنّ المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتّحدّي، سالمٌ عن المعارضة، وهي إمّا حسّيّةٌ وإمّا عقليّة" "١" ؛ فمن ثمّ يُخَصّ القرآن الكريم دون غيره بالمعجزة المستمرّة: "إنّ معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشهدها إلّا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرّةٌ إلى يوم القيامة." "٢".

*لا يمكن النّظر إلى "الإعجاز العلميّ" كموضوعٍ مستقلٍّ عن موضوعٍ أوسع هو: "إعجاز القرآن الكريم"، هذا الموضوع الّذي أضحى من مُسَلَّمَات العقيدة الإسلاميّة، وفي مراحل مبكّرةٍ في تاريخ الدّعوة باستثناء بعض المعتزلة ممّن قال بالصّرفة كـ"إبراهيم بن يسار النّظام" (ت: ٢٣٠هـ) "٣"، "هشام الفوطي"، "عبّاد بن سلمان"، ولا نكاد نجد من فِرَق

المسلمين قديمًا وحديثًا من يتوقّف عند "مُسَلَّمَة إعجاز القرآن الكريم"؛ فإعجاز القرآن الكريم وفقًا لعموم المعتزلة وبقيّة فِرَق المسلمين إعجازٌ موضوعيٌّ أي: أنّه حُجَّةٌ على النّاس وتحدٍ لهم أن يؤلّفوا قرآنًا على شاكلته.

*يُعقّب السّيوطيّ في "الإتقان" على إعجاز الصّرفة الّذي قال به النّظام "ثُمّ زعم النّظام أنّ إعجازه بالصّرفة أي: أنّ الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورًا لهم، لكن عاقهم أمرٌ خارجيٌّ، فصار كسائر المعجزات، وهذا قولٌ فاسدٌ بدليل الآية: "قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ"؛ فإنّها تدلّ على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولوسلبوا القدرة لم تبقَ فائدةٌ لاجتماعهم؛ لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى ممّا يحتفل بذكره، هذا مع أنّ الإجماع منعقدٌ على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزًا، وليس فيه صفة إعجاز؟! بل المعجِز هوالله–تعالى-؛ إذ إنّه سلبهم القدرة على الإتيان بمثله." "٤"

*كتب الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) كتابًا بعنوان: "نظم القرآن"، وتطرّق فيه بالنّقاش إلى إعجاز النّظم القرآنيّ، ورغم أنّ الكتاب مفقودٌ، لكن الباقلّاني ذكره، وعلّق عليه، لكنّ موضوع "إعجاز القرآن الكريم" لم يتبلور كموضوعٍ مستقلٍ للتّأليف إلّا في القرن الرابع الهجري؛ إذ إنّنا نجد أوَّل كتابٍ يشتمل عنوانه على كلمة الإعجاز: "إعجاز القرآن في

نظمه وتأليفه "لأبي عبد الله محمّد بن يزيد الواسطيّ، المعتزليّ (ت: ٣٠هـ) "٥"، ومن ثَمّ كُتُبٌ عديدةٌ منها: "إعجاز القرآن" لأبي الحسن الرّماني (ت: ٣٨٤هـ)، وكذلك ناقش أبوسليمان الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) آراء السّابقين له في الإعجاز، وناقض مقولة الإعجاز بالصّرفة، وتوسّع في وجوه الإعجاز البلاغيّ، وقال بنوعٍ جديدٍ من الإعجاز يتّصل بالوِجدان وتأثير القرآن في النّفوس، وكتب أبوبكر بن الباقلّانيّ(ت: ٤٠٢هـ) كتابه الشّهير "إعجاز القرآن".

وفي القرون التّالية ازدهر التّأليف في الإعجاز القرآنيّ، وظهر العديد من الكتابات في هذا الموضوع لمؤلّفين أبرزهم: عبد القاهر الجرجانيّ، الزّركشيّ، الغزاليّ، السّيوطيّ....إلخ، ولسنا في صدد التّفصيل في ذلك. *ذكر الرّمانيّ في كتابه سبعة وجوهٍ لإعجاز القرآن وهي: "ترك المعارضة مع توافر الدّواعي وشدّة الحاجة، التّحدّي للكافّة، الصّرفة، البلاغة، الأخبار الصّادقة عن الأمور المستقبلة، نقض العادة، قياسه بكلّ معجزةٍ." "٦"، ونقل السّيوطيّ في "الإتقان": اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن.... فذكروا في ذلك وجوهًا كثيرةً كلّها حكمةٌ وصوابٌ، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءًا واحدًا من عشرة معشاره، فقال قومٌ: هوالإيجاز مع البلاغة، وقال آخرون: هوالبيان والفصاحة، وقال آخرون: هوالرّصف والنّظم، وقال آخرون: كونه خارجًا عن جنس كلام العرب من النّظم والنّثر وإلخّطب والشّعر مع كون حروفه في كلامهم ومعانيه في

خطابهم وألفاظه من جنس كلماتهم، وهوبذاته قبيلٌ غير قبيل كلامهم وجنسٌ آخر عن أجناس خطابهم حتّى إنّ من اقتصر على معانيه، وغيّر حروفه؛ أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه، وغيّر معانيه؛ أبطل فائدته؛ فكان في ذلك أبلغ دلالةً على إعجازه، وقال آخرون: كون قارئه لا يكلّ، وسامعه لا يمَلّ، وإن تكرّرت عليه تلاوته، وقال آخرون: هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية، وقال آخرون: هو ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع، وقال آخرون: كونه جامعًا لعلوم يطول شرحها ويشقّ حصرها." "٧".

*سوف يأخذ الإعجاز البلاغي نصيب الأسد من وجوه الإعجاز عند الأقدمين؛ حيث يقسّم الرّمانيّ البلاغة إلى ثلاث طبقات: "إنّ ما كان في أعلاها معجزٌ، وهوبلاغة القرآن." "٨" . بينما سيستأثر الإعجاز العلميّ بالنّصيب الأكبر من وجوه الإعجاز عند المحدثين.

ويقسّم أحد المحدثين الإعجاز القرآنيّ إلى البيانيّ والعلميّ: الأول حجّةٌ على العرب، الثّاني حجّةٌ للناس على مدار العصور."٩" وبشكلٍ عامٍّ يعرض الإعجازيّون لأوجهٍ متعدّدةٍ من الإعجاز القرآنيّ منها: إعجازٌ لُغويٌّ "بيانيٌّ، بلاغيٌّ، تصويريّ"، إعجازٌ تشريعيٌّ، إعجازٌ غيبيٌّ، إعجازٌ علميٌّ، إعجازٌ عدديٌّ ...إلخ.